

المواقف السياسية للشيخ محمد خير الدين (المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936، وبيان الشعب الجزائري 1943)

د. إسعد لهلالي- جامعة سطيف 2

يتناول هذا المقال الدور الذي لعبه الشيخ محمد خير الدين أحد أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م، وبيان الشعب الجزائري سنة 1943م، حيث كانتا بحق محطتين مهمتين في نضال الرجل الذي عرف بنشاطه وبالخدمات الجليلة التي قدمها دفاعا عن الدين واللغة والوطن .

1- دوره في المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936م:

يعتبر المؤتمر الإسلامي الجزائري من أهم الأحداث السياسية الذي لم تشهده الجزائر طيلة أكثر من قرن وهو أكبر تجمع شاركت فيه مختلف الاتجاهات و مثلته مختلف الطبقات و قد تميز بالعدد الكبير للحاضرين والمشاركين كما أن المطالب التي طرحها المؤتمر كانت تحمل آمالا عريضة في مختلف النواحي.

إن فكرة عقد المؤتمر تعود إلى الإمام ابن باديس و يذكر الشيخ خير الدين الذي كان من أبرز قادة الجمعية ومن الذين سايروا الإمام ابن باديس منذ إنشاء الجمعية عام 1931م، أن الإمام ابن باديس قد دعا المكتب الدائم لجمعية العلماء و ذلك لحضور اجتماع مستعجل في أواخر سنة 1935م وقد حضره الشيوخ الطيب العقبي؛ البشير الإبراهيمي؛ الأمين العمودي؛ محمد خير الدين، ولم يحضر الشيخ مبارك الملي، أما الشيخ العربي التبسي فقد كان في مهمة تخص الجمعية، وقد وقع الاتفاق على إسناد رئاسة المؤتمر للدكتور بن جلول وتأليف مكتب من النواب و العلماء، كما تم الاتفاق على توجيه الدعوة باسمه ونشرها في الدفاعة "لاديفانس" للأستاذ العمودي (1)، و حول تلك الدعوة كتبت الشهاب >> سجل التاريخ المنصف فكرة عقد المؤتمر الإسلامي للأستاذ عبد الحميد ابن باديس فقد نشر في جريدة لاديفانس (la defonce) في عددها الصادر في 3 جانفي 1936م آراء له في السياسة الجزائرية كان لها وقع عظيم، ومن تلك الآراء التي ارتأها الأستاذ عقد مؤتمر إسلامي جزائري فكان أول من فكر في عقد هذا المؤتمر قبل فوز الجبهة الشعبية بأشهر...>> (2).

وحسب الدكتور ابو القاسم سعد الله (3) فإن انعقاد عدة مؤتمرات إسلامية للنظر في قضايا العالم الإسلامي و منها قضية الخلافة، مؤتمر القاهرة، مؤتمر الهند 1929، ومؤتمر القدس 1930م كانت الدافعة كما يقول البعض إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي جزائري.

ويذكر الدكتور عبد الكريم بو صفصاف (4) عوامل داخلية ساهمت في عقد المؤتمر كميلاد جمعية العلماء عام 1931م، ونجاح المنتخبين الجزائريين سنة 1934م في الانتخابات البلدية و أيضا الحزب الشيوعي الذي أصبح منذ 1933 يتهم من طرف الإدارة لمحاولة تهديد مصالح الفرنسية في الجزائر، كما أن ظهور عدة مشاريع إصلاحية و على رأسها مشروع بلوم فيوليت بأنه من أهم عوامل عقد المؤتمر.

لقد ساهمت التحولات السياسية التي وقعت سنة 1936م في الجزائر أو فرنسا وحتى في إفريقيا الشمالية و الشرق الأوسط في تغذية روح الاستقلال لدى الشعب الجزائري المسلم ،لذلك دعا الناطقون الرسميون للمجتمع الجزائري إلى تعبئة الرأي العام الإسلامي بهدف عرض طموحات الشعب الجزائري على رجال الدولة الفرنسيين ونتيجة لذلك كان المؤتمر الإسلامي(5)

لقد كان للشيخ خير الدين وبقية قادة جمعية العلماء دور كبير في التحضير لهذا المؤتمر منذ الدعوة الأولى التي أطلقها الإمام ابن باديس ،حيث عقد إجتماع في 6 جوان 1936م أي قبل يوم واحد من المؤتمر التاريخي حيث إجتمعت القوى الجزائرية على إختلاف مشاربها و إتجاهاتها وذلك بنادي الترقى و تدارسوا مطالب الأمة الجزائرية ،وحضر عن العلماء كل من الإمام ابن باديس و الشيخ البشير الابراهيمي والشيخ خير الدين بهدف إستشارتهم فيما يتعلق بالمطالب الدينية و كذا اللغة العربية ،كما تم الاتفاق على صورة المطالب التي تعرض على المؤتمر للموافقة عليها وكيفية التمثيل البرلماني على أن يكون مشكلا من النواب و العلماء و الشبان مع إسناد رئاسة المؤتمر إلى الدكتور بن جلول (6)

وفي 07 جوان 1936م إنعقد المؤتمر الإسلامي الجزائري،وقد كتبت البصائر :>> هبت الأمة الإسلامية الجزائرية بجميع طبقاتها على تلك الدعوة الجامعة التي أذاعها الأستاذ (عبد الحميد بن باديس)رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و الدكتور (ابن جلول)رئيس جمعية النواب بعمالة قسنطينة إلى عقد مؤتمر إسلامي جزائري عام تعرض فيه مطالب الأمة وحقوقها ،وتتبادل فيه الآراء بين علماء الأمة و نوابها و ذوي الرأي منها فيما يتفق من هذه المطالب و الحقوق مع الأوضاع الحكومة الحاضرة ...فقتلت جزائريتها و إسلامها للعيان في يوم مشهود هو يوم 17 ربيع الأول سنة 1355هـ الموافق ل 7 جوان 1936 و في مدينة تاريخية هي مدينة الجزائر وفي صالة (الماجستيك الفسيحة) >>(7)

لقد انعقد المؤتمر الإسلامي في صالة الماجستيك (حاليا قاعة الأطلس بالعاصمة) وكان حضور العلماء قويا، و فعلا ممثلين في الشيوخ :بن باديس ؛البشير الإبراهيمي ،الطيب العقبي ؛محمد خير الدين إلى جانب حضور النواب و الشيوخ،أما بالنسبة لممثلي النجم فحسب سعد الله(8)موقفهم لم يكن واضحا ،بينما يذكر احد الكتاب مشاركة النجم في المؤتمر ممثلين عن فروع كل من تلمسان، و مستغانم، و العاصمة ،و يضيف أنّ الفرع الأخير ساهم في حفظ النظام يوم المؤتمر كما شارك في عدة لجان (9)،ويبدو أن القوى الرئيسية التي حضرت المؤتمر حسب المصادر هي:العلماء، والنواب والشيوخ.

والحق أن المؤتمر كان بهيجا فعدد الحاضرين كان بالآلاف فقد كتبت البصائر:>>إنّ الأمة الجزائرية كلها حشرت في هذا المؤتمر ،وإن قُدّرت الجرائد الفرنسية من ضمنهم قاعة المؤتمر بخمسة أو ستة آلاف شخص وحزراهم نحن بسبعة آلاف أو يزيدون >> (10)، ويذكر أحد الكتاب أن العدد بلغ أربعة آلاف شخص(11).

وتكمن أهمية المؤتمر في الإتفاق الذي وقّعه ممثلو النواب، والعلماء والشيوخ وهو عبارة عن مجموعة من القرارات تمثل مطالب الأمة أثناء الاجتماع (12)وهي حسب مجلة الشهاب:

1. ثقة المؤتمر بالحكومة الشعبية الجديدة و شكرها على عواطفها نحو الأمة الجزائرية
 2. إلغاء جميع القوانين و القرارات الاستثنائية الخاصة بالمسلمين.
 3. تخويل المسلمين الجزائريين جميع الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون مع المحافظة التامة على المميزات الإسلامية التي يتمتع بها المسلم الجزائري في أحواله الذاتية الشخصية مع إدخال إصلاحات عليها.
 4. تخويل المسلمين الجزائريين حق التمثيل في البرلمان الفرنسي على هذه الصورة:
 - انتخاب مشترك بين المسلمين والفرنساويين.
 - تعميم في المنتخبين على الصورة الجارية الآن في انتخاباتهم المحلية.
 - تأكيد في المحافظة على الأحوال الشخصية الإسلامية. 5. تأسيس لجنة تنفيذية للمؤتمر .
- أما الاقتراحات الفردية فهي :
- إلغاء الولايات العامة وما يتبعها من الأوضاع الإدارية كالدوائر المختلطة والقواد و إلغاء مجلس النيابة المالية الذي يتحكم في الميزانية الجزائرية، و إلغاء المجلس الأعلى المبني عليه.
 - إلغاء المحاكم العسكرية.
 - عقد المؤتمر بهذا الاسم و بهذه الروح و على هذه المبادئ عند كل مناسبة.
 - تكريم الرجال الذين عملوا لخير الجزائر بلا فرق بين أجناسهم الأحياء يشكرهم باسم المؤتمر و الأموات بإحياء ذكراهم و جرى في هذا الموقف ذكر فيوليت (Viollette) و موتي (Motti) و الأمير خالد و أليان روزي (Alien Rozzi).
- *- طرح كلمة (أنديجان) و هجر استعمالها. (13)
- *- العفو عن المحكوم عليهم في حوادث 5 أوت (14).
- هذا عن أهم مطالب المؤتمر العامة والخاصة، أما مطالب جمعية العلماء التي قدمها لمكتب المؤتمر فهي تصب في محورين هما : اللغة و الدين , فقد طالبت الجمعية باعتبار اللغة العربية لغة رسمية مثل الفرنسية مع حرية تعليمها في المدارس الحرة ، أما في مجال الدين فقد طالبت الجمعية بتسليم المساجد للمسلمين مع منحها مقدار من الميزانية وفق قانون فصل الدين عن الدولة ، أيضا تأسيس كلية لعلوم الدين ، وتنظيم القضاء مع إصلاح المحاكم الشرعية وفق مبادئ الشريعة الإسلامية (15)

لقد كان للعلماء دور فعال في مجريات أول مؤتمر إسلامي جزائري ومشاركتهم كانت فعالة و كانوا السباقين في إنشائه، والأكثر إخلاصا في عدد المشاركين، وكان بعض أعضاء مجلسها الإداري الشيوخ: بن باديس، البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، خير الدين، والأستاذ العمودي من أنشط الأعضاء المشاركين في لجانته و أيضا مع الوفد المكلف بعرض مطالب المؤتمر في باريس(16).

و الحق أن الشيخ خير الدين هو واحد من الذين ساهموا ونشطوا في أكبر تجمع سياسي عرفته الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي فكان من الأوائل الذين وضعوا اللبنة الأولى لعقد ذلك المؤتمر بعد الدعوة التي وجهها إليه الإمام بن باديس على معنى المشاورة، ورغم أن الحدث أصبح أكبر و أهم بعد المشاركة الواسعة للنواب والشيوخ، إلا أن الشيخ خير الدين تجسد نشاطه بصورة واضحة في اللجان التي أحدثها المؤتمر، ففي مساء يوم المؤتمر اجتمع زعماء المؤتمر و قرروا تأسيس لجنة مؤقتة تتكون من تسعة أعضاء، ثلاثة من النواب، و ثلاثة من العلماء، ونفس العدد من الشبان، فغن النواب: الدكتور بن جلؤل رئيس المؤتمر والمحامي عبد السلام بن الطالب والصيدلي عبد الرحمن بوكردنة، وعن العلماء الشيوخ: البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، محمد خير الدين. أما عن الشبان: الأستاذ بن الحّاج والمهندس عبد الرحمن بوشامة والسيد عبد الله العنابي (17)

و تالت اجتماعات اللجنة المؤقتة بنادي الترقى حيث ساهم الشيخ خير الدين مع بقية الأعضاء في ترتيب المطالب وتنظيم أوراق المؤتمر، كما تقرر في جدول الأعمال تكوين لجان المؤتمر في المدن الكبرى من العائلات الثلاث، كما أن كل مدينة تستنبح ملحقاتها لتكون تلك اللجان الفرعية قاعدة قوية للمؤتمر وأن تنتدب كل لجنة عضوا من أعضائها ليكون عضوا في اللجنة التنفيذية، كما تقرر عقد اجتماع في الخامس جويلية لتشكيل اللجنة التنفيذية (18)

وفي الخامس جويلية انعقد الاجتماع في نادي الترقى بالعاصمة وحضر المنتدبون من اللجان الفرعية التي تم تأسيسها من الغرب إلى الشرق، وكان الشيخ خير الدين ممثلا للجنة بدائرة باتنة ومعه الدكتور بن خليل و السيد إبراهيم بغباغة (19)

ومن هؤلاء المنتدبين تم اختيار واحد و عشرون عضوا يشكلون "اللجنة التنفيذية للمؤتمر" (20)، وكل سبعة أعضاء يمثلون عمالة و هؤلاء السبعة منهم ثلاثة نواب وعالمين وشابيين، فكانت عمالة قسنطينة ممثلة كالآتي: عن النواب: الدكتور بن جلؤل، الصيدلي فرحات عباس، الدكتور الأخذري، وعن العلماء: الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ خير الدين، أما عن الشبان: الأستاذ طاهرات و السيد بن قلعية بكير (21)

وبعد الانتهاء من تشكيل اللجنة التنفيذية، بدأ أعضاؤها العمل في نشاط كبير، كما أن الشيخ خير الدين كان من بين الذين نظموا و شاركوا في مقررات اللجنة إلى جانب الإمام بن باديس، وسهروا على كتابة مطالب المؤتمر في كراس خاص و قد تقرر إرسال وفد إلى باريس لتقديم المطالب، وفي جلسة يوم الاثنين السادس جويلية على الساعة الثالثة مساء، شارك مترجمنا في أعمالها التي ركزت على ثلاث نقاط تتعلق بالوفد و هي، تحديد مأمورية الوفد، عدد أفراده، ثم تعيين أسمائهم (22)، على أن يكون الوفد متكونا من 18 عضوا، ومثل العلماء الشيوخ: عبد الحميد بن باديس، الإبراهيمي و العقبي وسافر الوفد بحرا يوم 18 جويلية 1936م و كان قد سبقهم بيومين كل من السيد طالب عبد السلام

والدكتور بشير عبد الوهاب، وسلموا مطالبهم إلى مختلف الهيئات الرسمية الفرنسية وكانت الزيارة الأولى إلى السيد "موريس فيوليت" (maurice viollette) الوزير الدولي والوالي العام سابقا، كما قابل الوفد رفقة السيد فيوليت (viollette) رئيس الوزراء السيد "ليون بلوم" (Leon Blum) يوم 23 جويلية و قدّموا له مطالب الأمة الجزائرية (23)، التي قررها المؤتمر الإسلامي الجزائري، كما قابلوا شخصيات أخرى (24)

يمكن القول أنّ مطالب الأمة التي صاغها المؤتمر الإسلامي الجزائري قد انحصرت في خمس محاور أساسية هي: الديني، الاجتماعي، السياسي الإداري، الاقتصادي، وقد لقيت هذه المطالب آذانا مسدودة من طرف السلطة الفرنسية، وعاد الوفد وأقام تجمعا كبيرا يوم 2 أوت 1936 بالملعب البلدي شرح من خلاله أعضاء الوفد الظروف و لمواقف التي أحاطت برحلتهم الحاملة لمطالب الشعب الجزائري، و حسب أبي القاسم سعد الله فإنّ فشل حركة المؤتمر الإسلامي هي تعبير عن فشل سياسة فرنسا في الجزائر (25)، بينما ذكرت إحدى التقارير الفرنسية أنّ تلك المطالب التي حملها وفد المؤتمر تبين أن هؤلاء الزعماء ينقصهم النضج السياسي (26)

لقد كتب الكثير من الباحثين حول المؤتمر الإسلامي الذي يعتبر أهم تجمع شعبي سياسي كما ذكرنا سابقا، وقد وقعت إحداثه في ظل تولي الجبهة الشعبية للحكم، والتي كانت معروفة بسياساتها اللينة، وربما ذلك راجع إلى الظروف السياسية الصعبة التي كانت تمر بها فرنسا و أوروبا بشكل عام بسبب تنامي الخطر النازي الألماني، و الفاشي الإيطالي، و كانت الأوضاع تنبئ بوقوع حرب عالمية ثانية و هو ما حدث فعلا، وربما هذا ما جعل القائمين على السلطة في فرنسا يستقبلون الوفد على أرضهم تقاديا لأي تمرد قد يحدث في مستعمراتها الجزائر أو حتى باقي المستعمرات الأخرى .

لقد ذكرت إحدى التقارير الفرنسية أنّ المؤتمر الإسلامي قد تكوّن بسبب الجبهة الشعبية التي أبدت تعاطفا مستمرا معه، وأنّ المطالب قد وضعت الثقة في حكومة فرنسا الجمهورية، وأنّ إنهاء قانون الأندجينا هو في مصلحة فرنسا (27)

و مهما يكن فإنّ المؤتمر لم ينته مع عودة الوفد و عقده لاجتماع يوم 2 أوت، وإنما استمر عمل اللجنة التنفيذية من أجل دفع الجبهة الشعبية لتنفيذ مطالب "كراسة المؤتمر" فالشيخ خير الدين أحد الفاعلين في اللجنة التنفيذية يذكر أنّ اللجنة اجتمعت في ديسمبر 1936م بنادي الترقى و تم تعيين الدكتور البشير عبد الوهاب النائب العمالي عن دائرة البلدية ورئيس وحدة النواب لعمالة العاصمة رئيسا للجنة التنفيذية، أما العلماء فتم تعيين الشيخ خير الدين من الدعاة و الشيخين بن باديس والإبراهيمي ضمن الأعضاء المستشارين ومن بين ما قامت به اللجنة إرسال عريضة إلى الحكومة الفرنسية و طالبت بتنفيذ مطالب الوفد الإسلامي الجزائري، كما أنّها وجهت نداء إلى الأمة دعت فيه إلى الإتحاد و الالتفاف حول رجال المؤتمر و مساندتهم بكل الوسائل (28)

إنّ المتبع لدور مترجمنا و أقر أنه العلماء كممثلين عن الجمعية يلاحظ أنّهم شاركوا بقوة في كل أطوار المؤتمر، فالعلماء هم أول من دعا إليه، وقد شارك مترجمنا في الاجتماعات التحضيرية و كان ضمن أعضاء اللجنة التنفيذية و مثل ابن باديس والإبراهيمي و العقبي العلماء في الوفد الذي سافر إلى باريس، إلا أنّ أحد الكتاب ذهب إلى

أن المؤتمر هو مؤتمر مخدوعين حيث لم يناقش المشاركون أي مسألة جوهرية، كما هاجم العلماء على أساس أن قبولهم بميثاق المؤتمر في رأيه فيه تناقض كبير لارتكاز مواقف العلماء على مبادئ عربية إسلامية، فهم يتبنون سياسية الإدماج و يتحدثون في نفس الوقت عن الأمة الجزائرية و عن الاستقلال (29)

ويبدو أن الشيخ خير الدين قد أكد أن الجمعية عملت في ميدان السياسة العامة حيث يقول (30): >>> لم تكن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حزبا سياسيا و لم تعمل في ميدان السياسة الحزبية التي تكونت في بلادنا خلال فترة تأسيس الجمعية، إنما عملت في ميدان السياسة العامة التي تهدف إلى توعية الأمة و تكوين المواطن الصالح و تبصيره بحقوقه في الحرية والاستقلال.<<<

إن ما سعى إليه الشيخ خير الدين هو أن ما قامت به الجمعية في جوانبها الإصلاحية كان الهدف منه توعية الأمة، فالهدف القريب كان تربية النشأ على التمسك بدينه و لغته، أما الهدف البعيد فهو الكفاح و الجهاد لتحرير الوطن، ويذهب إلى ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله حيث ذكر أن العمل الذي قامت به الجمعية تمثل في صراعها مع الإدارة الاستعمارية في مطالبتها التعليمية و الدينية و رفض سياسة التجنيس، إلا أنها تبدو غير سياسية لأنها صدرت من جمعية و ليس حزبا (31)

إن ما يمكن قوله هو أن مترجمنا و باقي أقرانه من العلماء قد لعبوا دورا هاما وفعالا في الترويج لفكرة المؤتمر الإسلامي الذي دعا إليه الإمام ابن باديس، كما أن مترجمنا كان له نشاط كبير في اللجنة التنفيذية للمؤتمر و يكفي أن أعضاءها قد نظّموا ورتّبوا مطالب الأمة في كراسة المؤتمر و اكتمل دور العلماء بمشاركتهم في وفد المؤتمر الذي سافر إلى باريس، ومادام ممثلوا الأمة قد وصلوا إلى فرنسا نفسها فهذا نعتبره خطوة هامة في نمو الوعي الوطني بشكل عام و بداية تبلور أفكار الحرية والاستقلال التي بدأت بوادرها في الظهور خلال الحرب العالمية الثانية مع بيان الشعب الجزائري سنة 1943.

2- مشاركته في بيان الشعب الجزائري 1943م.

يعتبر بيان الشعب الجزائري من أهم الأحداث التي شهدتها الجزائر أثناء الحرب العالمية الثانية وقد كانت هناك خطوات مهدت لذلك البيان التاريخي، ففي 8 نوفمبر 1942 وفي ظل أحداث الحرب العالمية الثانية وتعدد الجبهات القتالية جاء الإنزال الأنجلو-أميركي على السواحل الجزائرية، حيث كانت حاملة لشعار الدفاع عن الحرية والديمقراطية .

ومنذ إنزال الحلفاء بدأ الاتصال السري و العلني بين الوطنيين الجزائريين، وبين حزب الشعب و فرحات عباس، وكانت أيضا المناقشات تدور حول شروط دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، ويذكر أبو القاسم سعد الله أن فرحات عباس قد اتصل بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ويرجح الشيخان محمد خير الدين و العربي التبسي، كما أنه لا يستبعد أيضا مصالي الحاج الذي كان معتقلا، كما إتصل أيضا بالسيد مورفي (Murphy) ممثل الولايات المتحدة الأمريكية بالجزائر و أغسطين بيرك (Augustin Berque) مسؤول الشؤون الأهلية الفرنسي بالجزائر، وبناء على تلك الاتصالات قدم مذكرة مطالب إلى الحلفاء، بما فيهم الفرنسيون بتاريخ 22 ديسمبر 1942م وقّعها ممثلو الولايات الثلاثة (الجزائر، وهران، قسنطينة) حيث اشترطت عقد مؤتمر ينتج عنه دستور سياسي

وإقتصادي و اجتماعي جديد للجزائر مقابل التضحية التي طلبها الحلفاء لكنها رفضت بحجة أنها تخص الفرنسيين فقط لأن دور الحلفاء هو تحرير شمال إفريقيا من السيطرة الألمانية (32)

رغم أن جمعية العلماء قد رفضت الإدلاء برأيها في الحرب كما رفضت مساندة فرنسا، كي لا تحيد عن مبادئها، خاصة بعد وفاة الإمام بن باديس و اعتقال الشيخ البشير الإبراهيمي، إلا أن الشيخ خير الدين كان من أولئك الذين دافعوا عن حرية الوطن، كما شارك إلى جانبه الشيخ العربي التبسي حتى وإن كانت الجمعية معروفة بابتعادها عن السياسة، فوجود الحلفاء على أرض الجزائر وتبنيهم لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها جعل مترجمنا من السابقين لا غنتام تلك الفرصة إلى جانب وطنيين آخرين ممثلين عن مختلف الاتجاهات مما يبين الرغبة الصادقة في التخلص من الوجود الفرنسي، ولم يثن رفض قائد الحملة "جيرو" لمطالب الطبقة السياسية من عزيمتهم. وقرروا الاستمرار في المطالبة بحقوقهم ويذكر أحمد توفيق المدني (33) أنه في شهر جانفي 1943م اتفق كل من الإخوان عباس فرحات و الحكيم ابن جلول على الدعوة إلى اجتماع سياسي تأسيسي، وكان بهدف وضع مطالب الشعب الجزائري، ويضيف أحمد توفيق المدني (34) أنهم أخبروا "مورفي" (Murphy) ممثل أمريكا بذلك الاجتماع تقاديا لما قد تقدم عليه السلطة الفرنسية، وفي 10 فيفري 1943م تم التوقيع على مجموعة من المطالب سميت "بيان الشعب الجزائري".

و قد كان الشيخ خير الدين واحدا من الذين ساهموا في ذلك البيان التاريخي إلى جانب ممثلين عن مختلف الاتجاهات، ويقول فرحات عباس (35) كاتب هذا البيان >>>: فاجتمعوا حينذاك في مكتب الأستاذ بومنجل في الجزائر العاصمة و حضر هذا الجمع السادة الدكتور تامزالي رئيس القسم القبائلي في النيابات المالية، وغرسي أحمد نائب مالي وقاضي عبد القادر مستشار عام ورئيس جمعية الفلاحين و الدكتور الأمين وعسلة عضو حزب الشعب الجزائري، والشيخ التبسي و الشيخ خير الدين و الشيخ توفيق المدني من جمعية العلماء و الدكتور بن جلول وفرحات عباس و محمد الهادي جمام رئيس جمعية الطلبة و الدكتور سعدان مستشار عام إتفق هؤلاء النواب عن خطط مبدئية و قرروا نشر ميثاق جديد يتضمن مطالب الشعب الجزائري فكلفت أنا بتحريره فعدت إلى مدينتي سطيف وهناك حررت بيان الشعب الجزائري>>>.

إن الملاحظ للحاضرين الذين وقّعوا على البيان يلمس تقاربا بين التشكيلات الوطنية، فنجد العلماء و النواب و حتى من حزب الشعب المنحل، ويبدو أن هناك تطورا في الوعي الوطني وإلا فلماذا ذلك التقارب والذي بدأ في الحقيقة رغم فشله منذ المؤتمر الإسلامي سنة 1936م وذلك يتبين من خلال المطالب التي كتبها فرحات عباس وذكرها في كتابه (36) حيث يقول: >>> فإن الشعب الجزائري يطالب من الآن و ذلك تبديدا لكل سوء تفاهم و تداركا للمطامع و المطامح التي قد تكثرت أنيابها بما يأتي:

1. إدانة الاستعمار و القضاء عنه، أي تحريم استغلال شعب من طرف شعب آخر و تحريم إدماجه و ضمه عنوة.

2. تطبيق تقرير المصير لجميع الشعوب الصغيرة منها و الكبيرة .

3. منح الجزائر دستورا خاصا بها يضمن لها:

أ. حرية جميع السكان و المساواة بينهم دون ميز جنسي و لاديني.

ب. إلغاء الإقطاعية الفلاحية و ذلك بإصلاح زراعي واسع النطاق يضمن الرفاهية و الرخاء لسواد الجماهير الفلاحية .

ج. الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية بجانب الفرنسية .

د. حرية الصحافة و حق الاجتماع .

هـ. التعليم المجاني و الإجباري لجميع الأطفال ذكورا و إناثا.

ز. مشاركة المسلمين في حكم بلادهم مشاركة عاجلة و فعلية.

ن. إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من جميع الأحزاب>>.

لقد تعددت الآراء والتحليل حول محتوى البيان ومقاصده وحسب أحد الكتاب(37) فإن ذلك البيان هو نظام قانوني هجين يحتل مكانة وسطى بين استقلال حسب النموذج السوري والمحمية حسب النموذج التونسي ، لكنه يستند إلى استقلال داخلي أضفت عليه أفكار حزب الشعب، أما كاتبين آخرين(38) فقد عبّرا عنه بأنه طريق "الجنسية والمواطنة".

وإذا ما تتبعنا آراء أخرى نجد أن البيان احتوى على مطالب خاصة بجمعية العلماء والتي دونها الشيخ خير الدين والشيخ العربي التبسي كالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية وحرية التعليم أيضا و مجانية ،حرية الصحافة ،كذلك حرية العقيدة لجميع السكان و تطبيق مبدأ فصل الدين عن الدولة على جميع الأديان وهي من أهم مطالب الجمعية قبل الحرب و منحت للبيان أكثر قوة،كما أنّ البيان كان يهدف إلى القضاء على الاستيطان في الجزائر و يبحث عن دور للجزائريين في حكم بلادهم بعيدا عن السيطرة الفرنسية ،وذلك بالقيام بإصلاحات مختلفة لتجسد ذلك الدور ،وقد ظهرت تلك النية بعدد المنخرطين في الحركة الذي وصل إلى أكثر من نصف مليون في أقل من عام واحد (39)

و هكذا قام و فد عن البيان مكوّن من:الدكتور بن جلول و الدكتور تامزالي ،وأورابح و بن علي الشريف والدكتور الأخضرى ،وفرحات عباس بتسليم نص البيان إلى الوالي العام بيروتون(40) (Pyrouton)،بتاريخ 31 مارس 1943، فاستقبلهم ،ووعدهم بأن يأخذ النص بعين الاعتبار كأساس لدستور الجزائر،وتم تشكيل لجنة سميت "لجنة البحث الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي" يوم 3 افريل 1943م، ويرى أبو القاسم سعد الله (41)أنّ تلك اللجنة لا تخص المسائل السياسية وأنها أحدثت لكسب الوقت لأنّ الحلفاء لم يعبروا في ذلك الوقت البحر المتوسط إلى أوربا وكذلك تنويع الحماس الوطني وخلق انقسامات داخل الحركة الوطنية التي تجمعت حول البيان.

و مهما كانت طبيعة تلك اللجنة فقد اجتمعت مرتين من 14 إلى 17 أفريل ثم من 23 إلى 26 جوان وصادقت على لائحة عرفت باسم "ملحق البيان" (42)، وسلم إلى الجنرال "ديغول" (De Gaulle) يوم 10 جوان كما سلم أيضا إلى الجنرال "كاترو" (Catroux)، وصادقت عليه لجنة الدراسات يوم 26 جوان بحضور مندوب الحكومة الذي أعطى موافقته (43) وقد اعتبره بعض الكتاب أنه الأكثر دقة ووضوحا من البيان نفسه (44) وحسب أبي القاسم سعد الله (45) فإنّ البيان و ملحقه وثيقة واحدة يحتوي على مزيج من المطالب السابقة للنخبة والعلماء و حزب الشعب، وأنها من وحي التجارب الماضية للجزائريين مع الاستعمار ،و هناك من الكتاب من تحدث عن الملحق وذكر بأنّه يدور حول التحرير و الدستور المستقل ومجلس جزائري منتخب لكنه أعاب على الملحق إهماله للاستقلال و فسر ذلك بأنّه تحدّث عن الرقابة و التوجيه لفرنسا (46)

لقد شارك الشيخ خير الدين في البيان التاريخي و عبّر عن مطامح جمعية العلماء و الشعب الجزائري المقهور ،ويبدو أنّ الإصلاح عنده -كما ذكر سابقا- لم يقتصر على الدين فقط بل حتى الإصلاح الوطني، أي المشاركة في الأحداث السياسية و في ذلك البيان وقّع مطالب الجمعية التي كانت دينية تربوية و هذا صحيح لكن ذلك التمسك بالدين واللغة سيؤدي حتما إلى وغي وارتفاع نحو مطالب أخرى هي التخلص من السيطرة الاستعمارية نهائيا.

و الحق أنّ نشاط الشيخ خير الدين قد استمر أثناء الحرب العالمية الثانية نظرا للجواب الذي أعطاه الفرنسيون حول البيان و ملحقه حيث كان رد ديغول (De Gaulle) الإعلان عن إصلاحات 7 مارس 1944م التي لم تأت بالجديد لأنّ الجزائريين صاروا لا يرغبون في الجنسية الفرنسية أكثر مما يبحثون عن الحرية و الاستقلال خاصة مع التطورات التي حدثت أثناء الحرب و نجاح الحلفاء في تضيق الخناق على الألمان، كذلك بداية تبلور فكرة إنشاء هيئة أممية من بين بنودها حق الشعوب في تقرير مصيرها ،كل هذه العوامل جعلت فرحات عباس يبادر إلى إنشاء حركة سياسية باسم "حركة أحباب

البيان و الحرية" (47) التي تأسست في 14 مارس 1944م بمدينة سطيف، وكان الشيخ خير الدين من بين أعضائها في إطار جمعية العلماء ،وذلك للدفاع عن مطالب البيان السابقة الذي يبحث عن الحرية و يوضح النص الإضافي و الملحق حاولت الحركة جعل فكرة الأمة الجزائرية شيئا مألوفا و الكفاح من أجل تأسيس جمهورية مستقلة ذاتيا ومحددة مع جمهورية فرنسا (48)

لقد كان رد فعل الاستعمار الفرنسي عنيفا بعيدا عن الأخلاق الإنسانية فكل المطالب التي ظهرت أثناء فترة الحرب العالمية الثانية ومن أول مذكرة إلى حركة أحباب البيان و الحرية ،والتي كانت مطالبها شرعية خاصة مع الظروف الجديدة ،وبعد نزول الحلفاء ظهر بصيص من الأمل للشعب الجزائري و قادة الحركة الوطنية لذلك سعوا جاهدين لإقناع كل الأطراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره ،لكن الفرنسيين والأوربيين والأمريكيين إحتسوا كأس الانتصار على حساب ألمانيا و حلفائها ،أما الجزائريون فلم ينالوا شيئا بل العكس فقد احتفل الفرنسيون يوم 8 ماي 1945م بقتل أكثر من 45 ألف جزائري حسب معظم الروايات و كأنّ الجزائريين كانوا إلى جانب الألمان ،كما قال الشيخ البشير الإبراهيمي (49) حول المجازر : >> يوم مظلم الجوانب مطرز

الحواشي بالدماء المطلية ... وفي لحظة تسامع العالم بأن الحرب انتهت مساء أمس ببرلين وابتدأت صباح اليوم بالجزائر...>>.

كما أنّ الشيخ خير الدين وباقي أعضاء الجمعية قد نالوا نصيبهم جرّاء جرّأتهم على المجاهرة بحقوقهم إثناء الحرب لأنّ في تلك المرحلة لم يكن هناك وقت للفرنسيين للرد خاصة أمام الخطر الألماني وبعد القضاء على ألمانيا أفرغ الفرنسيون غضبهم بالقتل والسجن والتعذيب على كل من شارك أو لم يشارك في التشويش على الفرنسيين ويقول الشيخ خير الدين (50) عن الاعتقالات التي كانت مصيره ومصير معظم الجزائريين : >> وفي صباح هذا اليوم -أي 9 ماي 1945م- داهمت شرطة المدينة المنزل الذي نقيم فيه أنا والشيخ العربي التبسي وحملونا إلى سجن الحراش بالجزائر العاصمة وبعد قضاء شهرين بين جدرانها نقلنا إلى سجن وهران وبعد انقضاء عدة شهور نقلونا إلى معتقل (بوسوي) جنوب مدينة وهران>>.

يمكن القول أنّ مشاركة الشيخ خير الدين في بيان الشعب الجزائري وما نتج عنه من ملحق للبيان وإنشاء حركة أحباب البيان والحرية أنّها محطة هامة وحاسمة تضاف إلى جهوده الإصلاحية، وبدأت تظهر جهوده في الإصلاح الوطني بعد المحطة الأولى خلال المؤتمر الإسلامي سنة 1936م، فنشاطه وحنكته جعلته يشارك إلى جانب أبرز قادة الحركة الوطنية الجزائرية، كما أنّه وقع أهداف جمعية العلماء وبيّن أنّ الجمعية ليست دينية فقط، كما أنّ لها أيادي عظيمة في محاربة الاستعمار.

الهوامش :

- (1)- محمد خير الدين : مذكرات ، ج 1 ، ط 1 ، مؤسسة الضحى ، الجزائر : 2002 ، ص ص 272-273.
- (2)- البشير الإبراهيمي : " فكرة المؤتمر " ، مجلة الشهاب ، مج 12 ، ج 4 ، 12 جويلية 1936 ، ص 198
- (3)- أبو القاسم سعد الله : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ج 3 ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 ، ص ص 20-21.
- (4)- عبد الكريم بو صفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1945-1930) ، ط 1 ، دار البعث قسنطينة : 1981 ، ص 253 .
- (5)- ali merad : opict .p.167.
- (6)- البشير الإبراهيمي : "النقط التاريخية في المؤتمر " ، مجلة الشهاب ، مج 12 ، ج 4 ص 201 .
- (7)- البشير الإبراهيمي : "المؤتمر الإسلامي الجزائري ، لا يبنى مستقبل الأمة إلا الأمة " ، جريدة البصائر ، العدد 23 ، 12 جوان 1936 ، ص 02 .
- (8)- أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 3 ، (1945-1900) ، ط 4 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1992 ، ص 153.
- (9) Mouhamed Guenaneche : le mouvement d'indépendance en Algérie entre les deux guerres (1919-1939) , traduit par sid Ahmed Bouali, entreprise nationale du livre ,Alger ,1990, P.70.
- (10)- البشير الإبراهيمي : " المؤتمر الإسلامي الجزائري ، لا يبنى مستقبل الأمة إلا الأمة " ، جريدة البصائر ، المصدر السابق، ص 2 .
- (11)- Claude Collot et Henry Jean robert : le mouvement nationale algérien textes. (1912-1954) , office des publications universitaires, Hydra, Alger ,1978, P.70 .
- (12)- تناول الكلمة الدكتور تامزالي باللغة الفرنسية مرحبا بالمؤتمرين باسم مدينة الجزائر ثم خطب بعده رئيس المؤتمر الدكتور بن جلول الذي وضع أهداف المؤتمر وأهميته ومطالبه وتكلم بعده الدكتور

- بن التهامي والدكتور عبد الوهاب فالصديلي عباس فرحات...ثم إنتهت النوبة إلى العلماء فقام الأستاذ عبد الحميد بن باديس باللغة العربية الفصحى فخطب الأرواح بلغتها...ثم شرح المطالب الدينية و المطالب المتعلقة باللسان العربي...وتكلم بعده الشيخ البشير الإبراهيمي فنوه بذلك اليوم، وكانت كلمة الختام للأستاذ الشيخ الطيب العقبي...، أنظر البشير الإبراهيمي: "يوم المؤتمر"، مجلة الشهاب ، مج 12 ، ج 4، جويلية 1936 ، ص 203.
- (13) البشير الإبراهيمي : "يوم المؤتمر" ، مجلة الشهاب، مج 12، ج 4، جويلية 1936 ، ص 203 - 204
- (14)-تم إسناد رئاسة المؤتمر إلى الدكتور ابن جلول أما المكتب فتكون من السادة :
-عن العاصمة :الدكتور تامزالي،الدكتور بشير عبد الوهاب ،محمد الطاهر طيار الصديلي، عبد الرحمن بوكردنة.
-عن قسنطينة :عبد الرحمن بن خلاف ،الدكتور سعدان ،الصديلي فرحات عباس .
-عن وهران :محمد بن سليمان،الدكتور الجيلالي بن التهامي،محمد لالوت.
-عن العلماء:عبد الحميد ابن باديس: البشير الإبراهيمي ،الطيب العقبي ،أنظر البشير الإبراهيمي : "المؤتمر الإسلامي الجزائري لا يبنى مستقبل الأمة إلا الأمة" ، جريدة البصائر ، المصدر السابق ، ص 2 .
- (15)البشير الإبراهيمي : "المؤتمر الإسلامي الجزائري ، لا يبنى مستقبل الأمة إلا الأمة" ، جريدة البصائر ، المصدر السابق ، ص 2 .
- (16)-Ali Merad : opcit,p.167.
- (17)- البشير الإبراهيمي : "المؤتمر الإسلامي الجزائري، لا يبنى مستقبل الأمة إلا الأمة" ، جريدة البصائر، المصدر السابق ، ص 2 .
- (18)-البشير الإبراهيمي : ،المصدر السابق، الصفحة نفسها .
- (19)-الفتى الزواوي : "تشكيل اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي الجزائري" ، مجلة الشهاب ، مج 12 ، ج 04 ، جويلية 1936 ، ص 229 .
- (20)-إقترح الشيخ عبد الحميد بن باديس أن يكون رئيس اللجنة التنفيذية، الدكتور بن جلول و نائبه الأستاذ العمودي وكاتبها العام الأستاذ بن الحاج، أمين مالها السيد عبد الرحمن بوكردنة وتم قبول الاقتراح، أنظر المصدر نفسه ، ص 230 .
- (21)-المصدر نفسه، ص 229 .
- (22)- نفسه، ص 230 .
- (23)- لقد قامت اللجنة التنفيذية بتنظيم و ترتيب المطالب في أوراق سميت "كراس المؤتمر الإسلامي الجزائري"، وقد نشرت في مجلة الشهاب، مج 12 ، ج 4، جويلية 1936 ، المصدر السابق، ص 237 - 238 . أنظر أيضا جريدة البصائر: مقال "رجوع الوفد الإسلامي الجزائري من باريس" ، العدد 30 ، 31 جويلية 1936 ، ص 03 . كما تم نشره في عدة جرائد كالأمة ، وجريدة الدفاع.
- (24)-إبن الحاج محمد : "وفد المؤتمر يوم أم العواصم باريس" ، جريدة البصائر العدد 30 ، 31 جويلية 1936م، ص 02.
- (25)- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، المرجع السابق ، ص 170.
- (26)- bulletin de renseignements n°12.concernant des mois juillet - Aout - septembre 1936 , S. L. N. A , archive historiques, w de Constantine .
- (27)(¹) - bulletin mensuel d'information concernant la politique indigène dans le département d'Oran , mois de décembre 1937, S. L. N.A, archive historique ,w de Constantine .
- (28)-محمد خير الدين : مذكرات ، ج 1 ،المصدر السابق ، ص 279-280.
- (29)- Ahmed Mahsas : le mouvement révolutionnaire en Algérie de la 1ere guerre mondiale a 1954 . libraire éditions L' Harmattan, paris :1979 ,PP.103-104.

- (30)-محمد خير الدين: مذكرات ، ج 1، المصدر السابق، ص285.
- (31)-أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1996م، ص145.
- (32)-أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ، ج3، المرجع السابق، ص205-206.
- (33)-أحمد توفيق المدني: حياة كفاح (مذكرات)، ج2 (1954-1925)، ش.و.ن.ت ، الجزائر 1977: ص367.
- (34)- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- (35)-فرحات عباس: حرب الجزائر وثورتها (ليل الإستعمار)، تعريب أبو بكر رحال ، مطبعة فضالة ، المحمدية المغرب، دت، ص167.
- (36)- فرحات عباس: المصدر نفسه، ص169-170.
- (37)-بنجامين سطورا: مصالي الحاج 1898-1974م، راند الوطنية الجزائرية ، ترجمة صادق عماري؛ مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر: 1999م، ص186.
- (38)- الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المقاومة السياسية (1900-1954) الطريق الإصلاحية والطريق الثوري ترجمة عبد القادر بن حراث ، م.و.ك، الجزائر 1987: ص72.
- (39)-مصطفى طلاس، بسم العسلي: الثورة الجزائرية ، ط1، دار الشورى، بيروت: 1982م، ص73.
- (40)-كما تم تسليم نص البيان إلى ممثلي الولايات المتحدة، وإنجلترا و روسيا، وأرسل إلى لندن، و إلى الجنرال ديغول، و إلى الحكومة المصرية بالقاهرة، أنظر فرحات عباس، المصدر السابق، ص173.
- (41)-أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ، ج3، المرجع السابق، ص208.
- (42)-كان يتضمن الملحق فصلين: الفصل الأول متعلق بإصلاحات آجلة لن يتم إنجازها إلا بعد نهاية الحرب، وكان ذلك الفصل يقول: عند نهاية الحرب، تصبح الجزائر دولة جزائرية لها دستور لها الخاص يضعه مجلس تأسيس جزائري منتخب من طرف الجزائريين قاطبة، أما الفصل الثاني فإنه ينص على إصلاحات عاجلة طالب الشعب الجزائري بتنفيذها في الحين، نظرا للظروف...، أنظر فرحات عباس: المصدر نفسه، ص173-174.
- (43)-شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير ،، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس: 1976، ص317.
- (44)-الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص76.
- (45)-أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ، ج3، المرجع السابق، ص213.
- (46)-ahmed mehsas :op.cit.P.168.
- (47)-لقد رسمت حركة أحباب البيان أهدافها كما يلي:
- المهمة العاجلة والأكيدة لهذه الحركة هي الدفاع عن البيان.
 - نشر الأفكار الجديدة التي هي روح الحركة .
 - إستنكار الاستبداد و التنديد بالعنصرية و جبروتها، أما وسائل نشاط الحركة هي:
 - إسعاف كل ضحايا القوانين الاستثنائية و ضحايا القمع و الاضطهاد.
 - إقناع الجماهير بمشروعية الحركة وخلق تيار مؤازر للبيان.
 - ترويج فكرة إنشاء دولة جزائرية وتأسيس جمهورية مستقلة مترابطة بروابط فيدرالية مع جمهورية فرنسية جديدة مناوئة للاستعمار ، أنظر فرحات عباس: المصدر السابق، ص181-182.
- (48)-الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص78.
- (49)-محمد البشير الإبراهيمي: " نكري 8 ماي " ، جريدة البصائر ، العدد 35 ، 10 ماي 1948 ، ص 01 .
- (50)-محمد خير الدين: مذكرات ، ج2، ط2، مؤسسة الضحى، الجزائر: 2002م، ص16.